



آثار وباء الطاعون الجارف في بلاد المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط

The Impacts of the Devastating Plague Epidemic on the Central Maghreb during the Medieval Period

صبيحة قرفي¹

sa.guerfi@univ-skikda.dz

تاريخ النشر: 2025/12/15
Received: 28/09/2025

تاريخ الاستلام: 2025/09/28
published: 15/12/2025

ملخص المقال:

لم يكن المغرب الأوسط بمعزل عن الأزمات الصحية العالمية وإكراهاتها، حيث شكّل الوباء على مر العصور أزمة مهددة لوجود الإنسان، وتكمن أهمية الدراسة الموسومة ب: آثار وباء الطاعون الجارف في بلاد المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط في كشف مظاهر وأثار وباء الطاعون الجارف في سلوك وذهنية سكان المغرب الأوسط باعتباره نموذجاً عن الأوبئة العالمية، من خلال الإجابة عن الإشكالية التالية: ما مظاهر الطاعون الجارف في مختلف الجوانب الحياتية للإنسان في المغرب الأوسط؟ وقد خلّصت الدراسة إلى أنّ الطاعون الجارف خلّف نتائج شديدة القسوة في البنية المجتمعية، والسلوكيات الفردية، والذهنية الجماعية.

كلمات مفتاحية: الوباء، الطاعون، الطاعون الجارف، الطاعون الأسود

Abstract:

Like other regions, the Central Maghreb faced the pressures of global health crises. This study, "The Impact of the Great Plague in the Medieval Central Maghreb," examines the plague's effects on the behavior and collective psyche of the region's inhabitants. It addresses the central question: How did the Great Plague affect different aspects of daily life? The findings indicate that the pandemic had severe consequences on the social fabric, individual conduct, and collective mindset, using the region as a case study for global pandemics.

Keywords: Epidemic; Plague; Devastating Plague; Black Death.

1. مقدمة

شكل الوباء عامة أزمة صحية على مرّ العصور، فكلّما اجتاحت العالم وباء شعر الإنسان أنّ وجوده مهدّد، خاصّة أنّ مخلفاته تكون أشدّ قسوة في البنية السّكانية، وتؤثّر في السلوكيات الفردية، والدّهنية الجماعية؛ ولم يكن المغرب الأوسط بمعزل عن هذه الأزمات العالميّة وإكراهاتها. ويهدف إزاحة الستار عن تجلّيات وآثار الطّاعون الجارف في سلوك وذهنيّة سكّان المغرب الأوسط نقدّم هذه الدّراسة تحت عنوان: "آثار وباء الطّاعون الجارف في بلاد المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط"، وللوقوف على أحوال الإنسان المغرب أوسطي خلال أزمة الوباء جعل البحث من الطّاعون الجارف النّازل سنة 749هـ/1349م، نموذجاً لتتبّع الدّهنية العامّة في مواجهة الوباء خلال العصر الوسيط؛ ولن يتأتّى لهذه الدّراسة ذلك إلا بالإجابة عن الإشكاليّة التّالية: كيف تجلّى الطّاعون الجارف في مختلف الجوانب الحيّاتية للإنسان في المغرب الأوسط؟ وتتضمّن هذه الإشكالية جملة من الجزئيّات نوردّها على الشّكل التّالي:

كيف أثر الطّاعون الجارف اجتماعيّاً واقتصاديّاً وديمقراطيّاً في واقع الإنسان المغرب أوسطي؟ وإذا كانت إفرازات وباء الطّاعون الجارف عميقة كيف انعكست في الدّهنية الجماعية؟ وفي السلوكيات الفردية؟ وكيف واجه الإنسان أزمة الوباء؟ ومن أجل الإلمام بهذه الجزئيّات لا بدّ أن تستند الدّراسة إلى منهجية عمل واضحة انطلاقاً من آليات المنهج التّاريخي القائم على جمع المادة الخبرية من مظاهرها الأصيلّة، وترتيبها وتبويبها في شكل محاور رئيسة، وعناوين جزئية، وتحريرها بعد التّمحيص والتّدقيق والتّحليل والمقارنة بين الأخبار لكشف العلاقات بين الأسباب والآثار. كما اعتمدت الدّراسة المنهج الوصفي من خلال آلية الوصف انطلاقاً من التّصوص المصدريّة التي فصّلت في أعراض الوباء، ووصف أحوال النّاس التّفسيّة، والدّهنية خلال فترة الوباء، والتّوقّف عند التّحوّلات الحاصلة في المجتمع بكلّ أبعاده.

وتتضمّن هذه الورقة البحثية مجموعة من المحاور:

1- تعريف مصطلحي الوباء والطّاعون الجارف

2- أسباب الطّاعون الجارف وأعراضه

3- تجلّيات الطّاعون الجارف في المغرب الأوسط خلال منتصف القرن الثامن هجري (14م)

4- الخطاب الفقهي والمدونة الطبية في مواجهة الطّاعون الجارف

2. تعريف مصطلحي الوباء والطّاعون الجارف

1.2 الوباء:

ورد الوباء عند ابن منظور المتوفى (711هـ/1311م) (ابن منظور، 1300هـ، ص189) على أنّه "الطّاعون"، وجمعه أوبئة (الجوهري، 1979)، والموبوءة والموبوءة كثيرة الوباء (ابن منظور، 1300هـ)، وهو المرض الذي يعمّ (ابن قيم الجوزية، د.ت) وينتشر فجأة وبسرعة. أمّا الطّاعون: فجمعه طواعين، وهو الوحيّ من الوباء (الجوهري، 1979)، وللتّمييز بين الوباء، والطّاعون ذكر ابن قيم -رحمه الله- أنّ الطّاعون يكثر في الوباء، وفي زمن الحرب، لذلك تمّ التعبير عنه بالوباء، وأضاف أنّ كلّ طاعون وباء؛ وليس كلّ وباء طاعون (الجوزية، د.ت)، بمعنى أنّ الطّاعون واحد من الأمراض الوبائية العامّة.

2.2 الطاعون الجارف

وردت أخبار الطاعون الجارف عند عبد الرحمن بن خلدون (ابن خلدون، 2000، صفحة 375) تحت اسم "الطاعون الجارف"، ولعله استخدم هذا الاسم للدلالة على قوة اكتساح الوباء كالسيل العرم الذي لا يُقَي على شيء أمامه، ونجد في غيره من المصادر: (ابن خلدون ي..، 2011، صفحة 157) "الطاعون الأكبر"، (ابن قنفذ القسنطيني، 1983، صفحة 354) "الوباء العام" و(المقريري، 1997، صفحة 84) "الموتان"، و(الونشريسي، 1981، صفحة 65) "الطاعون الأعظم"، (ابن الخطيب، 2015) "المرض الهائل"، ونرصد أخباره بالتوقف عند بعض النصوص الأولية، حيث كتب ابن خلدون (ابن خلدون ع..، 2000، صفحة 42) أنه «نزل بالعمران شرقا وغربا» وشمالا وجنوبا (المقريري، 1997)، واتصل بالجزائر المنقطعة في البحر (ابن الخطيب، 2015)، وأصيب به أجناس بني آدم، والحيتان والطيور، ووحوش البراري (المقريري، 1997).

3. أسباب الطاعون الجارف وأعراضه

1.3 أسباب الطاعون الجارف:

يذكر ابن الخطيب بداية ظهور الطاعون الجارف بأرض الخطا والصين عام 734هـ/1334م؛ وعن سببه يُضيف ابن الخطيب أن حربًا وقعت بتلك المناطق فتعقنت الجثث، وقبلها شبّ حريق هائل أتى على مساحات شاسعة ففسد الهواء، وانتشر الوباء (ابن الخطيب، 2015)، ولأن الهواء غذاء الروح كلما كان فسادة قويًا أصيبت الرئة، وهو الطاعون، وفساد الهواء يكون بكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبة الناتج عن كثرة العمران (ابن خلدون ع..، 2014)، وإن اتفق ابن خلدون وابن الخطيب في مسألة فساد الهواء كونه سببًا مباشرًا في ظهور الوباء بموضعه ابتداءً ثم انتشارا، فإن الأخير قد أشار إلى سبب غير مباشر مُرتبط بأمور فلكية تؤثر في العالم (ابن الخطيب، 2015)، إذ لم تكن الحرب المسبب الرئيس لتعفن الجثث وفساد الهواء؛ بل تزامنت عديد الكوارث وتناقلت في القارة الآسيوية بين سنتي 730-733هـ/1330-1333م من جفاف وزلازل وفيضانات ولحق ذلك مجاعات شاملة، وزاد من تفاقم الأزمات انتشار أسراب الجراد، وارتبطت كل هذه الكوارث بالطاعون، ويمكن إجمال الأسباب في وفرة العمران وتزايد الحروب والفتن، ومن نتائجهما فساد الهواء.

أما انتقال الطاعون الجارف فعن طريق السفن بشكل سريع من ميناء لميناء مع التجار، فما أن يحلّ بالمدن الساحلية سفن من عدوة انتشر فيها الوباء حتى يحلّ الوباء بالمدينة في نفس التاريخ (ابن الخطيب، 2015)، وانتقل أيضا عبر البرّ مع القوافل بتنوعها سيرًا على الأقدام (سكوت و كريستوفر دنكان، 2017)، فانتقل من آسيا إلى أوروبا (745هـ/1345م) ووصل القسطنطينية وفرنسا أواخر (747هـ/1347م) ومنهما إلى إيطاليا (748هـ/1348م) فالتواحل الشمالية والجنوبية لبحر الروم، وربما يكون قد حلّ بالإسكندرية أواخر (747هـ/1347م) وعمّ بلاد الغرب الإسلامي عاتمة سنة 749هـ/1349م (جوتفريد، 2017).

2.3 أعراض الطاعون الجارف:

وأما الأعراض المرضية التي تظهر على المصاب بالطاعون حسب ما ذكر صاحب مقنعة السائل (ابن الخطيب، 2015، صفحة 66) «الحُمى الوبائية... ونفث الدّم أو ظهور الخراج فيما خلف الأذنين أو الإبطين...»، وهي أهم أعراض الطاعون، التي لم يكن الناس فيها بحاجة إلى أدوية ولا أطباء لسرعة فتكها بالمصاب (المقريري، 1997)، وفي بداية المرض يتعرق المريض ودرجة حرارته غير مرتفعة، ثم الضعف العام في الجسد، والعطش الشديد، وثقل التنفس، وضيق في الصدر، والتهاب في الحلق مصحوب بالسعال وصداع في الرأس، والغثيان فالاختناق ثم تكون النهاية، مع وجوب الإشارة إلى اختلاف الأعراض حسب نوع الطاعون الذي يعانيه المصاب (المحلاوي، 2020).

ومدة الطاعون الجارف خمسة عشر (15) سنة (المقريري، 1997)، وهي مدة كافية لتكشف عجز الأطباء عن إيجاد علاج فعال للحد من انتشاره، وهي مدة كافية أيضا لتحدث تحولا جذريا في البنية الديمغرافية للمجتمعات، وتحولات أخرى على مستوى ذهنيات الناس وعاداتهم وسلوكياتهم، وحتى نفسياتهم.

4. تجليات الطاعون الجارف في المغرب الأوسط خلال منتصف القرن الثامن هجري (14م)

إن الباحث في مسألة الطاعون الجارف يصطدم بصمت المصادر عامة، فلا تذكره المؤلفات التاريخية إلا في سياق حديثها عن سائر الأحداث السياسية والاجتماعية (السعداوي، 1995)، إضافة إلى أن الإشارات الإحصائية قليلة جداً ويصعب التحقق منها (حميش، 1998) خاصة أنها نصوص انطباعية تنسم بالعمومية، وعدم الدقة (بوتشيش، 1999)؛ أما إذا حددنا مجال المغرب الأوسط للدراسة فإن الأمر يصير أكثر تعقيدا؛ إذ نفتقر لمصادر إخبارية رسمية عن مخلفات اكتساح هذا الوباء وامتداده زمنيا ومكانيا (حميش، 1998)، إلا أنه يبقى العلامة البارزة عن التحولات الجذرية التي تدفع إلى التراجع والضعف (السعداوي، 1995)، وهو ما اختزله ابن خلدون (ابن خلدون ع.، 2000، صفحة 43) بقوله: «وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالحمول والانقباض فبادر بالإجابة»، وهي دلالة على قوة تأثير الطاعون في الذاكرة الفردية والجماعية، وأن ابن خلدون قد لمس التغيير فعلياً في واقع بلاد المغرب، وانطلاقاً من هذا التقص في المادة الخبرية يمكن لنا دراسة مخلفات الطاعون الجارف وآثاره من خلال المظاهر العامة التي نقلتها المصادر عن بلاد المغرب الأوسط زمن الطاعون الجارف.

1.4 أثر الطاعون الجارف في الواقع الاجتماعي والعلمي:

كان لطبيعة التدوين التاريخي الوسيط - المنغلق على رصد أخبار القادة في المدونة التقليدية، والتأريخ للعلماء من خلال كتب التراجم، والأولياء ضمن كتب المناقب - دور مهم في خروج فئة العامة، والعبيد من صفحات التاريخ، لابتعادهم عن دائرة اهتمام المؤرخ إذ لا تذكر هذه الفئات إلا كإشارات في سياقات محددة لا تكفي لإثارة عتمة الروايات المظلمة من أحوال سكان المغرب الأوسط خلال الطاعون الجارف.

1.1.4 أثر الطاعون الجارف في الواقع الاجتماعي:

مع مرور الأزمات صار مؤكدا ملازمة الوباء للفقر والفقراء (مزدور، 2009) فيكثر في الضعفاء وأهل الشظف وأشد فتكا بالنساء والصبيان (ابن الخطيب، 2015) وهي أكثر الفئات تضررا؛ وسبب ذلك عدم العلم بالتدابير الاحترازية والجهل بها، ومنها مباشرة مضان الوباء من أثواب وأواني المرضى، وضيق السكن، وكثرة الاجتماع، وسوء التدبير (ابن الخطيب، 2015) وقد أشار صاحب تحفة الناظر إلى انعدام النظافة في أحياء تلمسان، وإن لم يكن زمن الطاعون تحديداً، ومنها رمي جيف الحيوان في الشوارع وإلقاء الأربال بالأفنية والطرق (العقباني، 1968)، وهي سلوكيات من مسببات الوباء وتزيد من انتشاره، ومن أسباب التفشي الحاد للطاعون الجارف غموض طبيعة الوباء في الأذهان نتج عنه عجز عن مواجهته والتحرز منه.

ولعلنا من جهة أخرى نستطيع إسقاط ما أورده المقريري (المقريري، 1997، صفحة 88) عن أحوال عامة الناس خلال الطاعون الجارف حيث كتب بإطلاق «وبطلت الأفراح من بين الناس... في مدة الوباء ولا سُمع صوت غناء وتعطل الأذان من عدة مواضع...»، ولعل هذه الصورة تعود بنا إلى السنوات القليلة الماضية، وما عايش العالم بشكل عام، والجزائر بوجه خاص في أوج أزمة كوفيد 19.

2.1.4 أثر الطاعون الجارف في الواقع العلمي:

أما الجانب العلمي فنقف عند الصورة القائمة التي نقلها ابن خلدون (ابن خلدون ع.، 2000، صفحة 42) وإن لم يحدد مجالا جغرافيا بعينه واصفاً آثاره العامة بأنه «ذهب بأهل الحيل» بعدما وقع الوباء العام «وتوفي... الكثير من الفقهاء» (ابن قنفذ القسنطيني، 1983،

ص354) والصّلاه (ابن الشماع، 1984) وذهب بالأعيان وجميع المشايخ، ويضيف ابن خلدون أنّه في حملة السلطان أبي الحسن المريني(732-752هـ/1331-1352م) كان جماعة من الأعيان والفضلاء هلك الكثير منهم في الطّاعون الجارف (ابن خلدون ع.، 2004)، وإن توقفت المصادر عند أسماء العلماء أحيانا فإنها أشارت إليهم أحيانا أخرى بصيغة الجمع كالأعيان والفقهاء والصّلاه دون ذكر الأسماء.

ومن الفقهاء الذين قضوا في الطّاعون وكانوا من مرافقي السلطان أبي الحسن المريني في حملته على إفريقية أبو موسى بن الإمام توفي 749هـ/1349م الذي صحب السلطان إلى إفريقية ثم عاد إلى بلده وهلك بعد ذلك في الطّاعون بزم يسير، والشيخ أبو عبد الله بن النجار توفي 749هـ/1349م من أهل تلمسان (ابن خلدون ع.، 2004)، وقاضي تلمسان أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور التلمساني الملازم للسلطان أبي الحسن إلى أن توفي بتونس ودفن بها (ابن مرزوق، 1981)، كما توفي الوليّ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار سنة 749هـ/1349م ودفن بمسجد قسنطينة وقبره يُزار للتبرّك به (ابن قنفذ، 1965) لكن ابن قنفذ لم يوضّح هل توفي بالطّاعون أم لا؟ وتوفي أيضا الخطيب حسن بن علي (ابن قنفذ القسنطيني، 1983) (750هـ/1350م) والد ابن قنفذ القسنطيني.

ونستشف من نص ابن خلدون بعض الإشارات كتوقف حلقات الدّرس لغياب الشيوخ، وتعطّل الرّحلات العلميّة حيث يذكر أنه نشأ على طلب العلم، والتّنقل بين حلقاته إلى أن جاء الطّاعون الجارف وتعطلّ عن طلب العلم (ابن خلدون ع.، 2004)، ويضيف أنّ السّبل والمعالِم قد دُرس (ابن خلدون ع.، 2000، صفحة 43) بمعنى توقّف الرّحلات، وعمومًا كان طلبة العلم يتنقلون في جملة القوافل التجاريّة أو الحجّية، ناهيك عن الرّحلات البحريّة؛ ولعلّ هذه الحال شبيهة بما وقع خلال جائحة كوفيد مع فوارق سمة العصر.

2.4 أثر الطّاعون الجارف في اقتصاد المغرب الأوسط :

من الطّبيعيّ جدّا أن يعقب الطّاعون الجارف تدهورًا اقتصاديًا، ولكنّ التّصوص لا تصرّح بذلك، غير أنّ ابن خلدون (ابن خلدون ع.، 2000، صفحة 42) أوقفنا على وصفٍ مهمٍّ للطّاعون الذي «طوى كثيرًا من محاسن العمران ومحامها»، وهي إشارة إلى التّراجع العمراني والاقتصادي، فقلّة اليد العاملة ستؤثر على الإنتاج بسبب كثرة الموت وأضاف (ابن خلدون ع.، 2000، صفحة 43) أنّه خلف خراب «الأمصار والمصانع... وختل الدّيار والمنازل وضعفت الدّول والقبائل»، لأنّ من أهم عوامل قوة القبيلة كثرة أعداد أفرادها.

ويمكن القول أن النّظام القديم أصابه التّبدل والتّحوّل، فعند خروج الإنسان بحثًا عن طعامه سيجد نفسه أمام قطاع زراعي في حالة انخيار لنقص اليد الزراعيّة، وإهمال تربيّة الحيوانات (سكوت و كريستوفر دنكان، 2017) ؛ هذه الأخيرة شكلت مادّة أوليّة في الغذاء، وبحلول الطّاعون بإفريقية بقيت فيها أموال العربان سائبة دون رعاة، لتصاب هي الأخرى بداء فإذا دُبحت الشاة وجد لحمها مُتّئًا ولونه أسود وتغيّر طعم السّمن واللّبن وماتت قطعان المواشي (المقريري، 1997) وهو ما سيؤثر حتمًا على الإنتاج الاقتصادي وقانون العرض والطلب، والنّظام الغذائي للسكان والوفرة الغذائيّة.

وما من شكّ أنّ نقص الغذاء التّاجم عن قلّة اليد العاملة الزراعيّة، وموت الماشية، وعدم الإفادة من لحومها، وألبانها سيرافقه غلاء فاحش في الأسعار بسبب نقص العرض والندرة، حيث ارتفع سعر قفيز القمح إلى ثمانية دنانير كبيرة كما ارتفع سعر الشعير (ابن الشماع، 1984) واستشرى الغلاء في العالم بأسره (المقريري، 1997).

ويرى أحد الباحثين أنّ بلاد المغرب الإسلامي عامة قد شهدت تراجعاً اقتصادياً كبيراً، وأكثر المتضررين فئة المزارعين والصّناع وصغار التجار لخطورة الطاعون الجارف من جهة، ولأوضاعهم الصحيّة ونقص الغذاء من جهة أخرى (بقرار، 2020)، وما من شكّ أنّه نفس الحال في المغرب الأوسط.

4.3 الطّاعون الجارف وأثره في البنية الديمغرافية لمجتمع المغرب الأوسط:

عُدّ الطّاعون الجارف من أبرز الأحداث التي هزّت العالم في العصر الوسيط نتيجة مخلفاته، والمغرب الأوسط بعده عرف فراغاً سكّانياً رهيباً (مزدور، 2009) إذ تناقص العمران بانتقاص البشر وخلت البيوت والمنازل من أهلها وتبدّل السّكان بعدما قضى على الأمم وذهب بأهل الجيل (ابن خلدون ع.، 2000)، وهي عبارة قويّة الدّلالة على التّحول الجذري في البنية الديمغرافية، وتأثير الطّاعون فيها إلى حدّ التّاريخ به؛ ففي نازلة وردت على ابن عرفة (ت803هـ/1400م) من المغرب الأقصى يقول الونشريسي (الونشريسي، 1981، صفحة65) «نزلت هذه المسألة في عام خمسين وسبعمئة وقت تُزول الطّاعون الأعظم».

ورغم انعدام الإحصائيات إلا أنّنا نقف أمام عبارات مؤلمة عند ابن خلدون (خلدون ع.، 2004، صفحة45) عن أعداد الموتى حيث «طوى الطّاعون الجارف البساط بما فيه» وعمّ أفريقية كلّها (المقريزي، 1997) حتى بلغ عدد الأموات ألف شخص (ابن الشّمع، 1984)، وقيل أنّه مات من النّاس نصفهم حتى الطّير والوحوش والكلاب (ابن العماد، 1992)، واعتبر الباحث خالد بالعربي أن الطّاعون الجارف كان أشدّ ما يكون على أهل تلمسان حيث فتك بعائلات بأكملها (بلعري، 2009)؛ ومن المؤكّد أن الانهيار الديمغرافي المعبر عنه في النّصوص كان أشدّ على الأحياء الفقيرة (حميش، 1998) مقارنة بغيرها.

في هذا السياق لابدّ من الإشارة إلى الدّراسة الموسومة بأثر الطاعون الأسود على الوضع الديمغرافي والاقتصادي في بلاد المغرب الإسلامي (مقاربة تاريخية 749هـ/1348م) (بقرار، 2020) عرض فيها الباحث الآثار الديمغرافية للطاعون الجارف في المغرب الإسلامي عامّة، وخلص إلى أنّه أحدث تحولات عميقة استمرت خلال القرن الثّامن هجري (14م) والقرن الذي يليه، إضافة إلى ضخامة حصيلة الوفيات في المدن الساحلية، وشملت الوفيات جميع شرائح التركيبة السّكانية دون استثناء في المدن والأرياف، مع إقرار الباحث بصعوبة البحث في ظل غياب الأرقام والإحصائيات سواء على المستوى الاقتصادي أو الديمغرافي.

4.4 الطّاعون الجارف وأثره في نفسيّة وذهنيّة سكّان المغرب الأوسط :

لا تُفصح المصادر التي بين أيدينا عن الحالة التّفسيّة التي عاشها سكان المغرب الأوسط خلال أزمة الطّاعون الجارف، وهو ما يدفعنا لبعض الإسقاطات، والتأويل فعندما نظفر بعبارة (ابن الشّمع، 1984، صفحة98) «اشتد القلق في الطّعام» يمكننا تفسيرها بحالة الندرة المرهقة للإنسان في بحثه عن الطعام تحت مطرقة انعدام الغذاء وسطوة الغلاء، بغضّ النّظر عن حالة الوباء.

انعكاس آخر للطّاعون الجارف على نفسيّة الفرد، وهو الانطواء والانكفاء على الدّات لمفارقة الأهل والشيوخ ما عبّر عنه ابن خلدون بدخوله مرحلة من الانطواء حزناً على مفارقة الشّيوخ، ومشاعر الشّوق التي تلازمه (ابن خلدون ع.، 2004) بسبب وفاة شيوخه في الطّاعون، ويمكن إسقاط هذه الوضعية التّفسيّة والاستياء الكبير على أحوال طلبة العلم عامة لمغادرتهم حلقات العلم وتشجيع الفقهاء والشّيوخ.

ولتجاوز هذه الأزمة التّفسيّة بعد عجز الطّب عن وضع حلّ نهائيّ للطّاعون وجد الإنسان المعاش للطّاعون نفسه أعزّلاً تماماً في مواجهته، ولم يكن أمامه سوى العودة إلى الله ﷻ والتّمسك بالقيم الرّوحيّة التي تعزّز حالته التّفسيّة (البزاز، 1992)، وتقوّي إيمانه بالمولى سبحانه وتعالى. وخير سبيل لتقويّة صلة العبد برّبّه الصّلاة، لأنّ الصّلاة تُعالج جميع الأسقام قبل استحكامها، فيبادر من أحسنّ أعراض الطّاعون وغيره إلى الوضوء والصّلاة فإنّها تدفع عنه ذلك بإذن الله تعالى فتأثيرها عجيب في دفع شُرور الدّارين خاصة إذا أعطيت حقها (ابن

الخطيب، 2015). من جهة أخرى اعتبر الخروج للصلاة الجماعية في الصحاري بدعة لا تستند إلى نص فقهي، ناهيك أن اجتماع الناس يُساهم في سرعة انتقال المرض وارتفاع عدد المالكين (السعداوي، 1995).

إضافة إلى الأدعية والأذكار التي أوردها ابن الخطيب (ابن الخطيب، 2015، صفحة 57) ومنها كثرة الصلاة على النبي ﷺ والدعاء عقب الصلاة «اللهم إنا نعوذ بك من عظيم البلاء في النفس والأهل والمال والولد الله أكبر الله أكبر الله أكبر مما نخاف ونحذر الله أكبر الله أكبر عدد ذنوبنا حتى تغفر اللهم كما شفعت فينا نبينا محمد فأمهلنا وعمر بنا منازلنا ولا تؤاخذنا بسوء أفعالنا ولا تُهلكنا لخطايانا (كذا) يا رب العالمين»، وهو من جملة الأدعية الماثورة عن السلف الصالح المنجية من الأزمات الصحية.

5. الخطاب الفقهي والمدونة الطبية في مواجهة الطاعون الجارف

1.5 الخطاب الفقهي في مواجهة الطاعون الجارف:

بالعودة إلى النص الفقهي الصريح قالت عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- أنها سألت النبي ﷺ عن الطاعون فأخبرها (البخاري، 2002، ص 1452) «أنه كان عذاباً يبعثه الله على من يشاء فجعله الله رحمةً للمؤمنين فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان مثل أجر الشهيد». وفي حديث آخر (مسلم، 1426هـ) قال ﷺ «الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل أو على من كان من قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه». مما لا شك فيه أن الخطاب الفقهي كان حاضراً في زمن الطاعون الجارف، حيث شكّلت مسألة الخروج من أرض الطاعون مسألة خلاف، وهو ما أشار إليه ابن قنفذ القسنطيني خلال حديثه عن والده صاحب كتاب "المسنون في أحكام الطاعون" الذي ألفه بسبب هذا الوباء، والاختلاف بين أهل العلم في مسألة الفرار من أصيب بمرض الطاعون (ابن قنفذ القسنطيني، 1983)؛ خاصة بعد ثبوت العدوى بالتجربة والاستقراء والحسن وبالمشاهدة والأخبار المتناقلة (ابن الخطيب، 2015)، وهي دعوة للحجر الصحي، لأن الطاعون انتشر وعم بين الأفراد من الدار إلى الجيران فأقاربهم فلمباشرين لهم، وقد أكدت الأخبار سلامة أماكن منقطة (ابن الخطيب، 2015)، وهو دليل انتقال الطاعون بانتقال الأفراد.

بناءً على ما سبق فالخروج من أرض الطاعون يشكّل مضرّة على المرضى لكثرة تنقلهم، كما يشكّل مضرّة على الأصحاء الذين يستقبلون المرضى (مزدور، 2009)، وفي هذا تعميم للطاعون، وهلاكاً للنفس بسبب عدم التزام الحجر الوارد في الحديث النبوي الشريف، وفي نفس السياق ينقل لنا ابن قنفذ صورة والده الذي تجهّز للموت، وأعدّ ما يلزمه بعد الموت من كفن ونعش ونفقة (ابن قنفذ، 1965)؛ والخطيب من علماء الأمة لم يفر من الطاعون لأنّه محل اقتداء وانعكاس لمسألة إيمانية راسخة وهي الصبر في الطاعون ابتغاء أجر الشهادة. والظاهر أنّ الجدل الفقهي حول هذه المسألة قد اختفى بعد الطاعون الجارف، لأنّ الطّواعين لم تعد أمراً مستجداً (مزدور، 2009) بل صارت مألوفاً.

2.5 المدونة الطبية في مواجهة الطاعون الجارف:

وأهم المؤلفات الطبية حول الطاعون الجارف رسالة أحمد بن خاتمه (ت بعد 770هـ/1369م)، وهو شاهد على استئثار الطاعون الجارف في بلده المرية جنوب شرق الأندلس وكان طبيباً يعالج المطعونين فدوّن ملاحظاته، وخلاصة أبحاثه في "تحصيل الغرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" (بلجة، 2020)، وكان من بين الأطباء الذين تعاملوا مع الطاعون الجارف بطريقة علمية، فتتبع الأسباب والأعراض وشخص العلاج ووضّح طرق الوقاية منه، وحدّد ثلاثة أنواع من الطاعون تبعاً للأعراض (المحلاوي، 2020).

ومقالة محمد بن عبد الله بن السعيد السلماني الشهير بابن الخطيب "مقنعة السائل عن المرض الهائل" حدّد فيها مُنطلق الوباء وبدايته، وعوامل انتشاره، وناقش مسألة العدوى وأعراضه وسبل الوقاية منه، وأشار إلى مسألة الاستعداد والتهيؤ للعدوى، وتحسيدا لعنوان المقالة "مقنعة السائل" فإنّه ابن الخطيب حدّد علاج الطّاعون فذكر أنّه على وجهين: الوجه الأول التّحرّز والوقاية منه قبل الإصابة به باختيار الأغذية، وتهوية أماكن الاجتماع وإصلاح الهواء فيها بالطيوب والرياحين الباردة، واجتناب مظان الفساد وكلّ ما له علاقة بالمرضى والميت بهذا الداء من ثوب وآنية، والابتعاد قدر الإمكان عن البيت الذي فشي فيه الطّاعون. والوجه الثاني: علاج المرض بعد الإصابة به انطلاقا من الأعراض العامّة أو الخاصة بكلّ نوع (ابن الخطيب، 2015).

وتميّزت مقالة كلّ من ابن خاتمة وابن الخطيب بالدقّة في التعريف بالطّاعون الجارف ووصف الأعراض، وتحديد العلاج، وتوضيح سُبل الوقاية لتجنّب العدوى (السعداوي، 1995)، ويُعدّ ما قدّمه اجتهدا علميا للحفاظ على حياة الإنسان، وصورة من صور التّفاعّل العلمي في الأزمات الصحيّة وإدارتها.

خاتمة:

وفي نهاية هذه الدّراسة يمكن القول أنّ الطّاعون الجارف وباء عالمي مُنطلقه الصين، ثم فشي في مختلف أنحاء المعمورة، بانتقال الأفراد برا وبحرا وفساد الهواء مخلقا آثارا وانعكاسات مدمرة في القطاع الاقتصادي والبنية الديمغرافية على مستوى أعداد الوفيات، وعلى مستوى النفسانيات أيضا دون تمييز بين الفئات الاجتماعية.

ومن أبرز ما توصلت إليه الدّراسة أنّ الطّاعون الجارف قد أحدث شرخا في الذهنيات والسلوكيات، والذاكرة الجماعية بسبب العدد الضخم للوفيات؛ فعمت الأحزان وبطّلت الأفراح وتعطلت حلقات الدّرس، وتوقّفت الرّحلات العلميّة والحجّية، واستشرى الغلاء، ليس في المغرب الأوسط فحسب بل في كل أنحاء العالم.

كما انكشفت حالة من الخوف والقلق المستمر، وتوقّف الآذان، ومُنعت التّجمعات، ولم يعد أمام الإنسان إلّا العودة للواحد الديان وملازمة العبادات والأذكار، وبات التّحرّز من الوباء ضرورة لمنع العدوى بين الأفراد والجماعات.

وأمام الامتداد الجغرافي الهائل للطّاعون الجارف وطول عهده الذي أفرز حالة استنفار في الأوساط العلميّة لمعرفة طبيعة الوباء بهدف تجاوزه وتفادي الانهيار الديمغرافي.

شكل الوباء مأساة حقيقية في المجتمع الوسيط غير أنّنا في المغرب الأوسط مضطرون للتعامل مع مصادر اهتم مؤلفوها بالتدوين للطّاعون في السّياق العام للأحداث، والعناية بالنّخب والصّلحاء، في حين معاناة باقي الفئات تُجمّع في عبارات عامّة وإشارات انطباعية باهتة. وأخيرا نفتح نافذة للمهتمين بالأنثروبولوجيا للبحث في مجال الرّواية الشّعبيّة والأهازيج والشّعور الشّعبي والأمثال المتداولة محليّا، لعلّ فيها ما يكشف معاناة إنسان المغرب الأوسط خلال الطّاعون الجارف في العصر الوسيط.

المصادر والمراجع:

- 1- ابراهيم القادري بوتشيش. (1999). أثر قيام الدولة وسقوطها في التطور الديمغرافي بالمغرب في العصر الوسيط-دراسة حالة-. كنانيش(1). 1-Ibrahim alqadiri butshish. (1999). 'athar qiam aldawlat wasuqutiha fi altatawur aldiymughriafii bialmaghrib fi aleasr alwasit-dirasat halati-. kinanish.(1)
- 2- أحمد السعداوي. (1995). المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون: الطاعون الأعظم والطواعين التي تلت القرنين 8-9هـ/14-15م. إيلا(157). 2- 'Ahmad alsaedawii. (1995). almaghrib al'islamiu fi muajahat altaaeuna: altaaeun al'aezam waltawaein alati talath alqarnayn 8-9hi/14-15ma. 'iibila.(157)
- 3- البخاري محمد أبو عبد الله بن اسماعيل. (2002). صحيح البخاري. بيروت، لبنان: دار ابن كثير. 3- Albukharii Muhammad 'Abu Eabd Allh bn Asmaeil. (2002). sahih albukharii. Bayrut, Lubnan: dar abn kathir.
- 4- الجوهري اسماعيل بن حماد. (1979). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. (تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار) بيروت: دار العلم للملايين. 4- Aljawhari Asmaeil bin Hamadi. (1979). alsihah taj allughat wasihah alearabiati. (tahqiq: Ahmad Eabd Alghafur Eatar) Bayrut: dar aleilm lilmalayini.
- 5- حسام محمود الخلاوي. (2020). الطاعون الأسود (748-752هـ/1347-1351م) بين الطبيب الأندلسي ابن خاتمة الأندلسي (ت770هـ/1369م) وجامعات وأطباء أوروبا (دراسة وثائقية مقارنة). وقائع تاريخية، 2. 5- Husam Mahmud Almahalaawi. (2020). altaaeun al'aswad (748-752hi/1347-1351m) bayn altabib al'andalusii Ibn khatima al'andalsi (t770hi/ 1369ma) wa-jamieat wa'atibaa' 'uwrubaa (dirasat wathayiqiat muqaranatan). waqayie tarikhiatun, 2.
- 6- خالد بلعربي. (2009). المجاعات والوبئة بتلمسان في العهد الزياني(698-845هـ/1299-1442م). كان التاريخية(4). 6-Khalid Bilearbi. (2009). almajaeat walawibiat bi-talmisan fi aleahd alzayani(698-845h/1299-1442mi). kan altaarikhiatu.(4)
- 7- ابن الخطيب محمد أبو عبد الله بن عبد الله السلماني الغرناطي. (2015). مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل. (تحقيق: حياة قارة) الرباط، المملكة المغربية: دار الأمان. 7-Ibn Alkhatib Muhammad 'Abu Eabd Allh bin Eabd Allh Alsalmanii Algharnati. (2015). maqalat muqnieat alsaayil ean almarad alhayili. (tahqiqi: Hayat Qarati) alribati, Almamlakat Almaghribiati: dar al'amani.
- 8- ابن خلدون عبد الرحمن أبو زيد بن محمد الحضرمي. (2004). التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا. (تحقيق: محمد بن تاووت الطنجي) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية. 8- Ibin Khaldun Eabd Alrahman 'Abu Zayd Bin Muhammad Alhadramii. (2004). altaerif biabn Khaldun warihlatuh sharqan waghbarba. (tahqiqi: Muhammad Bin Tawit Altinji) Bayrut, Lubnan.
- 9- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد. (2014). المقدمة (الإصدار 7، المجلد 1، 2). (تحقيق: علي عبد الواحد وافي) مصر: دار نضضة مصر. 9-Ibin Khaldun Eabd Alrahman Bin muhamad. (2014). almuqadima (al'iisdar 7, almujuhalad 1, 2). (tahqiqi: Ali Eabd Alwahid Wafi) Masr: dar nahdat masr.
- 10- ابن خلدون عبد الرحمن. (2000). ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (المجلد 1، 7). (تحقيق: خليل شحادة) بيروت، لبنان: دار الفكر. 10- Ibin Khaldun Eabd Alrahman. (2000). diwan almuftada walkhabar fi tarikh alearab walbarbar waman easarahum min dhawi alshaan al'akbar (almujuhalad :1, 7). (tahqiqi: Khalil Shahada) Bayrut, Lubnan: dar alfikri.
- 11- ابن خلدون يحيى أبو زكريا. (2011). بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد (المجلد 1). (تحقيق: عبد الحميد حاجيات) الجزائر: عالم المعرفة. 11-Ibn Khaldun Yahyaa 'Abu Zakaria. (2011). bughyat alruwaad fi dhikr almuluk min bani eabd alwad (almujuhalad 1). (tahqiqi:Eabd Alhamid Hajiaati) Aljazayar: ealam almaerifati.

- 12-روبرت. س. جوتفريد. (2017). الموت الأسود جائحة طبيعية وبشرية في عالم العصور الوسطى (الإصدار 1). (المركز القومي للترجمة، المحرر: أبو أدهم عبادة كحيلة) القاهرة، مصر .
- 12-Rubirti. Si. Jutfrid. (2017). al mawt al'aswad jayihat tabieiat wabashariat fi ealam aleusur alwustaa (al'iisdar 1). (almarkaz alqawmii liltarjamati, almuhariru: 'Abu 'Adham Eibadat Kahilati) Alqahirat, Masr.
- 13-سالم حميش. (1998). الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ. بيروت: دار الطليعة .
- 13-Salim Hamaysh. (1998). al khaladuniat fi daw' falsafat altaarikhi. Bayrut: dar altalieati.
- 14-سمية مزدور. (2009). المجاعات والوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ/1192-1520م). قسنطينة، الجزائر.
- 14-Sumiyat Muzdur. (2009). al majaanat walawbiat fi almaghrib al'awsta (588-927h/1192-1520mi). Qasnatinat, Aljazayar.
- 15-سوزان سكوت، و كريستوفر دنكان. (2017). عودة الموت الأسود أخطر قاتل على مر العصور. (ترجمة: فايق جرجس حنا) مصر: مؤسسة هندواي.
- 15-Suzan Skut, w Kristufar Dinkan. (2017). eawdat al mawt al'aswad 'akhtar qatil ealaa mari aleusuri. (tarjamatu: Fayiqat Jirjis Hanaa) Masr: muasasat hindawi.
- 16-ابن الشماخ أبو عبد الله محمد بن أحمد. (1984). الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدوة الحفصية. (تحقيق: محمد العموري) تونس: الدار العربية للكتاب .
- 16-Ibn Alshamaae 'Abu Eabd Allh Muhamad Bin 'Ahmadu. (1984). al'adilat albayinat alnuwraniatufi mafakhir alduwat alhifsiati. (tahqiqi: Muhamad Almaemuri) Tunus: aldaar alearabiat lilkitab
- 17-عبد القادر بلجة. (سبتمبر 2020). مملكة غرناطة النصرانية في مواجهة الطاعون في القرن 14هـ/14م. العبر للدراسات التاريخية والأثرية، 3. (2)
- 17-Eabd Alqadir Biljata. (sibtambar, 2020). mamlakat gharnatat alnasriatifi muajahat altaaeun fi alqarn 8ha/14ma. aleibr lildirasat altaarikhiat wal'athariati, 3. (2)
- 18-العقباني أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد. (1968). تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر. (تحقيق: علي الشنوني) دمشق، سوريا .
- 18-Aleaqbanii 'Abu Eabd Allh Muhamad Bin 'Ahmad Bin Qasim Bin Saeid. (1968). tuhfat alnaazir waghaniat aldhaakir fi hifz alshaeayir wataghyir almunakiri. (tahqiqi: eali alshanufi) Dimashqa, Suria.
- 19-ابن العماد الدمشقي شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي. (1992). شذرات الذهب في أخبار من ذهب (المجلد 8). (تحقيق: محمود الأرناؤوط) دمشق، بيروت: دار ابن كثير .
- 19-Ibn Aleimad Aldimashqii Shihab Aldiyn 'Abi Alfalah Eabd Alhayi Bin 'Ahmad Bin Muhamad Aleukrii Alhanbali. (1992). shadharat aldhabab fi 'akhbar min dhahab (almujalad 8). (tahqiqi: Mahmud Al'arnawuwta) Dimashqa, Bayrut: dar aibn kathir.
- 20-ابن قنفذ أحمد بن الحسن القسنطيني. (1965). أنس الفقير وعز الحقيير. (تحقيق: أودولف فور، و محمد الفاسي) الرباط، المملكة المغربية: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي .
- 20-Ibn Qanfadh 'Ahmad Bn Alhasan Alqasanitini. (1965). 'anas alfaqir waeizi alhaqiri. (tahqiqi: 'uwdulf fur, w muhamad alfasi) Alribati, Almamlakat almaghribiatu: manshurat almarkaz aljamieii lilbahth aleilmii.
- 21-ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب. (1983). كتاب الوفيات. (تحقيق: عادل نويهض) بيروت، لبنان: الآفاق الجديدة.
- 21-Ibn Qanfadh Alqasantini 'Abu Aleabaas 'Ahmad Bin Hasan Bin Ealii Bin Alkhatayb. (1983). kitab alwafiyati. (tahqiq: Eadil Nuyhda) Bayrut, Lubnan: alafaq aljadidata .
- 22-ابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي. (د.ت). الطب النبوي. (تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، محمود فرج العقدة، عادل الأزهرى) بيروت، لبنان: دار الفكر .
- 22-Ibn Qiam Aljawziat Shams Aldiyn Muhamad bin 'Abi Bakr bin 'Ayuwb Alzareii Aldimashqi. (da.t). altibu alnabawi. (tahqiqi: Eabd Alghanii Eabd Alkhalik, Mahmud Faraj Aleuqdati, Eadil Al'azhari) Bayrut, Lubnan: dar alfikri.

- 23- محمد الامين البزاز. (1992). تاريخ الاوثة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. الرباط، المملكة المغربية: كلية الآداب والعلوم الانسانية.
- 23-Muhamad Alamin Albazazi. (1992). tarikh alawibiatiwialmajaeat bialmaghrib fi alqarnayn althaamin eashar waltaasie eashra. Alribati, Almamlakat Almaghribiati.
- 24- ابن مرزوق محمد أبو عبد الله. (1981). المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن. (تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا) الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- 24-Ibn Marzuq Muhamad 'Abu Eabd Allah. (1981). almusnid alsahih alhasan fi mathir wamahasin mawlana 'abi alhasan. (tahqiqi: Maria Khisus Bighira) Aljazayar: alsharikat alwataniat lilnashr waltawziei.
- 25- مسلم أبو الحسن بن الحجاج القشيري. (1426هـ). صحيح مسلم. الرياض، المملكة العربية السعودية: دار طيبة.
- 25-Maslim 'Abu Alhasan bn Alhajaaj Alqishayri. (1426hi). sahih muslmi. Alrayadi, Almamlakat Alearabiat Alsueudiatu: dar tibati.
- 26- المقرئ تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي. (1997). السلوك لمعرفة دول الملوك (الإصدار 4، المجلد 4). (تحقيق: محمد عبد القادر عطا) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- 26-Almiqrizi Taqi Aldiyn 'Abi Aleabaas 'Ahmad bin Eali bin Eabd Alqadir Aleubaydii. (1997). alsuluk limaerifat dual almuluk (al'iisdar 4, almujaalad 4). (tahqiqi: Muhamad Eabd Alqadir Eataa) Bayrut, Lubnanu: dar alkitub aleilmiati.
- 27- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. (1300هـ). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
- 27-Ibn Manzur 'Abu Alfadl Jamal Aldiyn Muhamad bin Mukram. (1300h). lisan allearbi. Bayrut: dar sadr.
- 28- منير بقرار. (2020, 10). أثر الطاعون الأسود على الوضع الديمغرافي والاقتصادي في بلاد المغرب الإسلامي (مقاربة تاريخية 749هـ/1348م). آفاق فكرية، 9(2).
- 28-Mnir Biqrar. (10, 2020). 'athar altaaeun al'aswad ealaa alwade aldiymughria fi aliaqtisadifii bilad almaghrib al'iislamii (miqarabat tarikhiati 749h/1348mi). afaq fikriati, 9.(2)
- 29- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى. (1981). المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والاندلس والمغرب (المجلد 10). المملكة المغربية: وزارة الأوقاف المغربية.
- 29-Alwinishrisi 'Abu Aleabaas 'Ahmad bin Yahyaa. (1981). almieyar almuearib waljamie almaghrib ean fatawaa 'ahl 'iifriqiat walandlas walmaghrib (almujaalad 10). Almamlakat Almaghribiati: wizarat al'awqaf almaghribiati.